الصاحب ابن عباد

(٣٢٦ - ٣٨٥)

نسبه

ينتسب الصاحب ابن عباد الى اسرة فارسية شريفة معروفة بالوجاهة والعلم والادب فهو كافي الكفاة ابو القاسم اسمعيل ابن ابي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن احمد بن ادريس الطالقاني نسبة الى الطالقان من اعمال قزوين والصاحب لقبه قال ابو سعيد الرستمي فيه :

ورث الوزارة كابراً عن كابر موصولة الاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا رتـه واسمعيل عن عبـاد

وقال ابو بكر الخوارزمي : « الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ودب ودرج من وكرها ورضع افاويق درها وورثها عن ابيه »

اما والده ابو الحسن عباد فقد كان يلقب بالامين وكان ديناً خيراً مقدماً في صناعة الكتابة وكتب لركن الدولة وكان ينصر مذهب الاشناني تديناً وطلباً للزلفى عند ربه كما قال ابو حيان التوحيدي .

وقد ورد ذكر عباد في كتاب الانساب للسمعاني وفي معجم الادباء لياقوت فذكرا عنه انه « كان من اهل العلم والفضل سمع ابا خليفة الفضل بن الحباب وابا بكر محمد بن يحيى المروزي وجعفر بن محمد بن الحسن القرماني ومحمد بن حبان المازني وجماعة من البغداديين والاصفهانيين والرازيين وروى عنه ابو اسحق بن حمزة الحافظ وابو الشيخ وابن مردويه الاصفهاني وابنه الوزير ابو القاسم ابن عباد والف كتاباً في احكام القرآن جود فيه ونصر فيه مذهب الاعتزال استحسنه كل من رآه . وكانت بينه وبين الحسن بن عبد الرحمن بن حماد القاضي مكاتبات ومراسلات قال ياقوت انها مذكورة مدونة » .

وتولى عباد وزارة ركن الدولة قبل ابن العميد ؛ يدل على ذلك رسالة كتبها ابن العميد للصاحب ابن عباد ورد فيها :

« مولاي وان كان سيداً بهرتنا نفاسته وابن صاحب تقدمت علينا رياسته[1] . . . »

وتوفي عباد سنة اربع وثلاثين وثلاثماية .

مولده وموطنه

ولد الصاحب ابن عباد بالطالقان لاربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ست وعشرين وثلاثماية والطالقان ولاية بين قزوين و بهر وهي عدة قرى يقع عليها هذا الاسم . وبخراسان ايضاً بلدة تسمى الطالقان وليست بلدة الصاحب .

نشأته

نشأ الصاحب في بيت علم وفضل ووجاهة واقبل على طلب العلم والادب منذ صغره و كان اذا اراد المضي الى

(١) انظر هذه الرسالة في ائمة الادب ج ٣ ص ٩١

المسجد ليقرأ تعطيه والدته في كل يوم ديناراً ودرهماً وتقول له تصدق بهما على اول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في صغره وشبابه الى ان كبر .

سمع من ابيه وجماعة وتتلمذ لاحمد بن فارس فاخذ عنه الادب في الري « وابن فارس نحوي على طريقة الكوفيين حمل الى الري ليقرأ عليه ابو طالب بن فخر الدولة » كما انه اخذ عن ابن العميد في الري الادب والشعر والترسل وروى عن البغداديين والرازيين .

والف في عنفوان شبابه كتاب الوقف والابتداء و كان ابو بكر ابن الانباري له كتاب في الوقف والابتداء فارسل اليه ابو بكر يقول : انما صنفت في الوقف والابتداء بعد ان نظرت في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال الصاحب للرسول قل للشيخ نظرت في النيف وسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك ايضاً .

عند ابن العميد

كان الصاحب في بدء امره من صغار الكتاب يخدم استاذه ابا الفضل ابن العميد على خاصة ولاجل صحبته لابن العميد لقب بالصاحب فكان يقال صاحب ابن العميد ثم اطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً وهو اول من لقب به من الوزراء .

كان ابن العميد يعطف على الصاحب ويتوسم فيه النجابة كما كان الصاحب يعجب بابن العميد ويجله . يحكى انه لما رجع الصاحب من بغداد دخل على ابن العميد فقال له كيف وجدت بغداد فقال : بغداد في البلاد مثل الاستاذ في العباد وانشده :

افاضل الناس وان برزوا لم يبلغوا غاية استاذها
اما ترى امصارها جمة ولاترى مصرا كبغداذها

وكان ابن العميد قد قدم مرة الى اصبهان والصاحب بها فكتب اليه يقول :

قالوا ربيعك قد قدم فلك البشارة بالنعم

قلت الربيع اخو الشتا ء ام الربيع اخو الكرم
قالوا الذي بنواله يغني المقل عن العدم
قلت الرئيس ابن العمي د اذاً فقالوا لي نعم

وقال في قدومه الى اصبهان ايضاً :

قدم الرئيس مقدماً في سبقه وكأنما الدنيا جرت في طرقه
فجبالها من حلمه وبحارها من جوده ورياضها من خلقه
وكأنما الافلاك طوع يمينه كالعبد منقاداً لمالك رقه
قد قاسمته نجومها فنحوسها لعدوه وسعودها في افقه
ما زلت مشتاقاً لنور جبينه شوق الرياض الى السحاب وودقه
حتى بدا من فوق اجرد سابح ان قال فت الريح فاه بصدقه
يحكي السحاب طلوعه فصهيله من رعده ومسيره من برقه
فنظمت مدحا لا وفاء بمثله وسجدت شكراً لانهوض بحقه

وقال في توديعه :

اودع حضرتك العاليه ونفسي لا ادمعي هاميه
ومن ذا يودع هذا الجنا ب فتهنأه بعده العافيه
جناب رعيت به جنة قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا وعلمت ما الهمم العاليه

كاني بغداد في شوقها اليك وادمعها الجاريه
وانت المرجى لاظفارها بآمالها وبآماليه
ولو كنت تأذن لي في المسير راذاً سرت في جملة الحاشيه
سبقت جوادك مد الطريـ ق وسرت وفي يدي الغاشيه

وله فيه مدائح كثيرة منها قوله :

من لقلب يهيم في كل واد وقتيل للحب من غير واد
انما اذكر الغواني والمقـ صد سعدى مكثراً للسواد
واذا ما صدقت فهي مرامي ومنائي وروضتي ومرادي
وندى ابن العميد اني عميد من هواها اليه الامجاد
لو درى الدهر انه من بنيه لازدرى قدر سائر الاولاد
اورأى الناس كيف يهتز للجو د لما عددوه في الاطواد
ايها الآملون حطوا سريعاً برفيع العماد واري الزناد
فهو ان جاد ضن حاتم طي وهو ان قال قلَّ قس اياد
واذا ما ارتأى فاين زياد من علاه واين آل زياد
قبل العيد يستعير حلاه من علاه العزيزة الانداد
سيضحي فيه بمن لا يواليـ ه ويبقى بقية الاعياد
مديحي ان لم يكن طال ابيا تاً فقد طال في مجال الجياد

ان خير المدائح من مدحته شعراء البلاد في كل ناد

وقوله :

اما ترى اليوم كيف جاد لنا بمستهل الشؤبوب منسجمه
يحكي ابا الفضل في تفضله هيهات ان يعتزي الى شيمه
كم حاسد لي وكنت احسده يقول من غيظه ومن المه
قال ابن عباد المنى كملت اذ عده ابن العميد من خدمه

وقوله من قصيدة ذكر فيها نقرسا نال يمناه :

ابو الفضل من اجرى الى الفضل يافعاً
فظل به يدعى وصار به يكنى

سلامته شمس المعالي وسقمه كسوف المعالي لا كسفن ولا بنا
ولم يأته ورد السقام لغير ما عرفنا فخذ معنى تأمله منا
وما راده الا ليشغل عن ندى والاّ فلم قد خص بالألم اليمنى
وما يحجز البحر الخضم عن الندى ولا السيد الاستاذ عن جوده يثنى

ومن اخباره مع ابن العميد ما حدث به قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضر الفقهاء والمتكلمون للمناظرة وانا اذ ذاك في ريعان شبابي فلما تقوض ذلك المجلس وانصرف القوم وقد حل الافطار

انكرت ذلك بيني وبين نفسي وعجبت من اغفاله الامر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته وعاهدت الله الا اخل بما اخل به اذا قمت يوماً مقامه ٠

وبقي الصاحب في خدمة ابن العميد الى ان صار كاتباً لمؤيد الدولة كما سيأتي في الفصل الذي يلي هذا الفصل وظل على اخلاصه لابن العميد حتى توفي ابن العميد سنة ٣٦٠ فانقلبت تلك الصداقة الى عداوة بين ابي الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد وبين الصاحب كما سيمر بك حتى صار الصاحب ينحرف عمن يمت بالصحبة لآل العميد قال الثعالبي : كان الصاحب منحرفاً عن ابي الحسين ابن فارس لانتسابه الى خدمة ابن العميد وتعصبه له فانفذ اليه من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب رد الحجر من حيث جاءك ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وامر له بصلة ٠ مع ان الصاحب تلميذ ابن فارس وفيه يقول : « شيخنا ابو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وامن فيه من التصحيف » ٠

وقد ورد في احدى رسائل الصاحب ما يدل على موجدته

على آل العميد قال [١] (.. .وفلان يعرفك ما رسمت اخراجه من معاملتك فتعلم اني احتطت لك احتياط الصديق ووضعت النظر والتسويغ وضع ذوي الاهتمام الصريح وحذفت ما كانت العميدية والقمية [٢] الزمته من صروف وطالبت به من قروف)

وقال ابو حيان التوحيدي : ما ذنبي اذا قال لي«الصاحب» هل وصلت الى ابن العميد ابي الفتح ؟ فاقول نعم رأيته وحضرت مجلسه وشاهدت ما جرى له و كان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا وفيما تقدم منه كذا وكذا ووصل ابا سعيد السيرافي بكذا وكذا ووهب لابي سليمان المنطقي كذا وكذا فينزوي وجهه وينكر حديثه وينجذب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له ثم يقول اعلم انك انما انتجعته من العراق فاقرأ عليّ رسالتك التي توسلت اليه بها واسهبت مقرظاً له فيها فأتمانع فيأمر ويشدد فأقرأها

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٠٢ (مخطوط)

(٢) لعله يريد بالقمية ابا عبد الله القمي وزير ركن الدولة قبل ابن العميد .

فيتغير ويذهل . ثم يقال لي من بعد جنيت على نفسك حتى ذكرت عدوه عنده بخير واثنيت عليه وجعلته سيد الناس

عند مؤيد الدولة

ظل الصاحب كاتباً يخدم ابن العميد في الري الى ان استكتبه ابن العميد لمؤيد الدولة ابي منصور بويه ابن ركن الدولة في اصبهان ومؤيد الدولة حينئذ امير في عنفوان الشباب وابوه ركن الدولة لا يزال حياً ولابن العميد رسالة ينبئ بها الصاحب باختياره كاتباً لمؤيد الدولة ومهذبا جاء فيها «... ولكن ولي النعمة يريد لتهذيب ولده ومن هو ولي عهده من بعده ... فلا يبخلن مولاي على ولي نعمته بفضل معرفته ..»

لا نعلم في اي سنة اختير الصاحب لكتابة مؤيد الدولة ولكنا نعلم ان ذلك كان قبل سنة ٣٤٧ اي حينما كان الصاحب ابن عشرين سنة فقد ورد في كتاب تجارب الامم لمسكويه في

حوادث سنة ٣٤٧ ما نصه :« وفيها ورد الامير ابو منصور بويه ابن ركن الدولة الى بغداد يخطب ابنة معز الدولة ومعه ابو علي ابن ابي الفضل القاشاني وزيرا ومعه ابو القاسم اسمعيل ابن عباد يكتب على سبيل الترسل فلما كانت ليلة السبت لليلتين خلتا من جمادى الاولى زفت بنت معز الدولة الى ابي منصور بويه ثم حملها الى اصبهان »

حمد مؤيد الدولة صحبة الصاحب وانس به لأنه احسن في خدمته واخلص اليه وآنس منه كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب كافي الكفاة كما يقول الصابي في كتاب التاجي فاستمر عليه لقب الصاحب واشتهر به وكان اول من سمي به ثم سمي به كل من ولي الوزارة من بعده .

تنقسم خدمة الصاحب لمؤيد الدولة الى قسمين قسم كان فيه كاتباً لا وزيراً وذلك من سنة ٣٤٧ « على وجه التقريب » الى سنة ٣٦٦ وهي السنة التي قتل فيها ابو الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد وتولى مكانه الصاحب . وقسم كان فيه الصاحب وزيراً لمؤيد الدولة وذلك من سنة ٣٦٦ الى وفاة مؤيد الدولة سنة ٣٧٣ .

وقد كانت اقامته مع مؤيد الدولة في القسم الاول من خدمته باصبهان ومن اخباره فيه انه سافر مع مؤيد الدولة الى بغداد سنة ٣٤٧ كما ذكر من قبل فعجبته بغداد كثيراً حتى قال لما سأله عنها ابن العميد « بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد » وفي بغداد اجتمع الصاحب بابي سعيد السيرافي وغيره من العلماء قال الصاحب: « انتهيت الى ابي سعيد السيرافي وهو شيخ البلد وفرد الادب وحسن التصرف ووافر الحظ من علوم الاوائل فسلمت عليه وقعدت اليه و بعضهم يقرأ الجمهرة فقرأ أَلْمَقْتُ فقلت انما هو لَمَقْتُ فدافعني الشيخ ساعة ثم رجع الى الاصل فوجد حكايتي صحيحة واستمر القاريء حتى انشد وقد استشهد :

رسم دار وقفت في طلله كدت اقضّي الغداة من جلله

فقلت ايها الشيخ هذا لا يجوز والمصراعان على هذا النشيد يخرجان من بحرين لان :

رسم دار وقفت في طلله فاعلاتن مفاعلن فعلن

(و) كدت اقضّي الغداة من جلله مفتعلن فاعلاتن مفتعلن

فذاك من الخفيف وهذا من المنسرح. فقال لم لا تقول

الجميع من المنسرح والمصراع الاول مخزوم ·فقلت لايدخل الخزم هذا البحر لان اوله مستفعلن مفاعلن هذه مزاحفة عنه واذا حذفنا متحركاً بقّينا ساكناً وليس في كلام العرب ابتداء به وانما هو:

(كدت أقضي الغداة من جلله)

بتخفيف الضاد فامر بتغييره ورفعني الى جنبه وابتدأ فقرئ عليه من كتاب المقتضب باب ما يجري وما لا يجري الى أن ذكر (وسَحرَ) وانه لا ينصرف اذا كان لسحر بعينه لانه معدول عن الاول فقلت ما علامة العدل فيه فقال انا قلنا السحر ثم قلنا سحر فعلمنا ان الثاني معدول عن الاول · قلت لو كان كذلك لوجب ان تطرد العلة في عتمة لانك تقول العتمة ثم تقول عتمة فضجر واحتد وصاح وار بد وادعيت انه ناقص والتمس التحاكم فكتبت رسالة اخذت فيها خطوط اهل النظر وقد أنفذت درج كتابي نسختها وفيها خط أبي عبد الله بن رذام عين مشايخهم · ورأيت الشيخ بعد ذلك عزيزاً فاضلاً متوسعاً عالماً فعلقت عليه واخذت عنه وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه وقرأت صدراً منه

وهناك ابو بكر ابن مقسم وما في اصحاب ثعلب أكثر دراية ولا اصح رواية منه وقد سمعت مجالسه وفيها غرائب ونكت ومحاسن وطرف من بين كلمة نادرة ومسألة غامضة وتفسير بيت مشكل وحل عقد معضل وله قيام بنحو الكوفيين وقراءتهم ورواياتهم ولغاتهم . والقاضي ابو بكر بن كامل بقية الدنيا في علوم شتى يعرف الفقه والشروط والحديث وما ليس من حديثنا ويتوسع في النحو توسعاً مستحسنا وله في حفظ الشعر بضاعة واسعة وفي جودة التصنيف قوة تامة ومن كبار رواة المبرد وثعلب والبحتري وابي العيناء وغيره وقد سمعت صدراً صالحاً مما عنده وكنت احب ان اسمع كلام اهل النظر بالعراق لما نتابع في حذقهم من الاوصاف .

قال ابو اسحق الصابي : حضر الصاحب ابو القاسم ابن عباد دار الوزير المهلبي عند وروده الى بغداد مع مؤيد الدولة فحجب عنه لشغل كان فيه وجلس طويلا فلما تأخر الاذن كتب اليّ رقعة لطيفة فيها :

واترك محجوباً على الباب كالـ .. ويدخل غيري كالـ .. ويخرج

فأقرأتها الوزير المهلبي فأمر بإدخاله . قال وكان الصاحب

عند دخوله الى بغداد قصد القاضي ابا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتثاقل في القيام له وتحفز تحفزاً أراه به ضعف حركته وقصور نهضته فاخذ الصاحب بضبعه وأقامه وقال نعين القاضي على قضاء حقوق اخوانه فخجل ابو السائب واعتذر اليه ·

وقال الصاحب : ما زال احداث بغداد يذاكرونني بابن شمعون المتصوف وكلامه على الناس في مكان الشبلي فجمعت يوماً في المدينة وعليّ طيلسان ومصمتة ووقفت عليه وقد لبس فوطة قصب وقعد على كرسي ساج بوجه حسن ولفظ عذب فرأيته يقطع مسائله بهوس يطيله ويسهب فيه فقلت لا بد من أن أسأله عما أقطع به وابتدرت فقلت يا شيخ ما تقول في قدسيكونيات[1] العلم اذا وقعت قبل التوهم فورد عليه ما لم يسمع به فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال لم أوخر اجابتك عجزاً عن مسألتك بل لاعطشك الى الجواب واخذ في ضرب من الهذيان فلما سكت قلت هذا بعد التوهم وانما سألتك قبله الى ان ضجر فانصرفت عنه ·

ولما عاد الصاحب من بغداد اخذ معه ابا الحسن البديهي الى

---

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٣١٩

اصبهان . واستهوته محاسن بغداد حتى حسن لفخر الدولة الاستيلاء عليها كما سيأتي .

وفي مدة كتابته لمؤيد الدولة زار المتنبي ابن العميد وطمع الصاحب في زيارة المتنبي اياه باصبهان واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب والحال حوبلة والبحر دجيلة ولم يكن استوزر بعد فكتب يلاطفه في استدعائه و يضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزنا ولم يجبه عن كتابه وقيل ان المتنبي قال لاصحابه ان غلياً معطاءاً يريد ان ازوره وامدحه ولا سبيل الى ذلك فصيره الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته وينعي عليه سيئاته وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم واكثرهم استعمالا لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته (٢)

وربما كان بناء القصر الذي شيده الصاحب باصبهان في القسم الاول من خدمته لمؤيد الدولة لان اقامته كانت باصبهان في ذلك القسم قال الثعالبي في يتيمة الدهر : اقرأ ني ابو بكر الخوارزمي كتاباً لابي محمد الخازن و رد عليه في ذكر الدار التي

(٢) الصبح المنبي ص ٨٢

بناها الصاحب باصبهان وانتقل اليها واقترح على اصحابه وصفها وهذه نسخته بعد الصدر (نعم الله عند مولانا الصاحب ادام الله تأييده مترادفة ، وايادیه متضاعفة ، وارى اولياء النعم كبت الله اعداءهم تتظاهر كل يوم حسناً في اعظامه ، و بصائرهم تترامى قوة في اكرامه ، والوفود على بابه المعمور كرجل الجراد وانتقل الى البناء المعمور بالفأل المسعود فرأينا يوماً مشهوداً ، وعيداً يجنب عيداً ، واجتمع المادحون وقال القائلون ولو حضرتني القصائد كلها لانفذتها الا اني علقت من كل واحدة ما علق بحفظي والشيخ مولاي يعرف ملك النسيان لرقي) ثم ذكر قصائد للشعراء الآتية اسماؤهم في وصف تلك الدار وهم : ابو العباس الضبي وابو الحسن صاحب البريد وهو ابن عمة الصاحب وابو الطيب الكاتب وابو سعيد الرستمي وابو الحسن الجرجاني وابو القاسم الزعفراني وابو القاسم ابن ابي العلاء وابو محمد ابن المنجم وابو عيسى ابن المنجم وابو القاسم عبيد الله بن محمد ابن المعلاً ابوه وابو العلاء الاسدي وابو الحسن الغويري وابن عطية وابو بكر الخوارزمي وغيرهم

***

اما القسم الثاني من خدمة الصاحب لمؤيد الدولة الذي

صار فيه الصاحب وزيراً فيبتديء من سنة ٣٦٦ الى سنة ٣٧٣ وذلك ان ركن الدولة عهد قبل وفاته سنة ٣٦٦ الى ولده عضد الدولة بالملك من بعده وجعل لولده فخر الدولة علي همذان واعمال الجبل ولولده مؤيد الدولة اصبهان واعمالها .

وفي المحرم سنة ٣٦٦ توفي ركن الدولة وكان وزيره ابو الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد فوردابنه مؤيد الدولة من اصبهان الى الري في صفر وخلع على ابي الفتح واستوزره في شهر ربيع الاول وكان مع مؤيد الدولة الصاحب فكتب الى ابي الفتح كتاب تهنئة بالوزارة اوله (انا اهنيء اطال الله بقاء مولاي الوزارة بالقائها الى فضله مقادتها[1] ...) فكره ابو الفتح موضعه وبعث الجند على الشغب حتى هموا بقتله وتلطف الصاحب في خلال ذلك لابي الفتح وقال له : انا انظلم منك اليك وانحمل بك عليك وهذا الاستيحاش سهل الزوال اذا تألفت الشارد من حلمك وعطفت على الشائع من ذكرك ولني ديوان الانشاء واستخدمني فيه ورتبني بين يديك واحضرني بين امرك ونهيك وسمني برضاك فاني صنيعة والدك واتخذني بهذا صنيعة لك وليس يجمل

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٢٦ (مخطوط)

ان تكر على مابنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه ومتى اجبتني الى هذا وامنتني فاني اكون خادمك بحضرتك وكاتباً يطلب الزلفة عندك في صغير امرك وكبيره وفي هذا اطفاء النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك اعدائي عليّ .

فقال ابو الفتح في الجواب : والله لا تجاورني في بلد السرير وبحضرة التدبير وخلوة الامير ولا يكون لك اذن عليّ ولا عين عندي وليس لك مني رضى الا بالعود الى مكانك من اصبهان والسلو عما تحدث به نفسك

فأمر مؤيد الدولة الصاحب بالعودة الى اصبهان فخرج من الري لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٦ على صورة قبيحة متنكراً بالليل وذلك انه خاف الفتك والغيلة و بلغ اصبهان والقى عصاه بها ونفسه تغلي وصدره يفور والخوف شامل والوسواس غالب وهم ابو الفتح بانفاذ من يطالبه و يؤذيه و يهينه و يعسفه .

قال الوزير ابو سعد سمعت الصاحب يذكر امره فقال في اثناء كلامه : ان مؤيد الدولة قال لي عند خروجي الى اصبهان ان ورد عليك كتاب بخطي او جاءك اجل حجابي وثقاتي للاستدعاء فلا تبرح من اصبهان ولا تفارقها الى ان يجيئك فلان

الركابي فانه ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل (ابو الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد) وامكنني الله من القبض عليه بادرت به اليك وهو العلامة بيني و بينك . قال فاستعظمت لحداثة سني وغرة الصبي وقلة التجربة ما حكاه الصاحب من قول مؤيد الدولة « ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل » وتعجبت منه واردت الغض من ابي الفتح فقلت وكان لأبي الفتح من القدر ان يصعب حبسه او يحتاج صاحبه الى الاحتيال معه ؟ فانتهرني الصاحب وقال يافلان انت صبي تحسب ان القبض على الوزراء سهل ففطنت انه يريد الرفع من شأن الوزارة وتفخيم امرها فعدلت عن كلامي الاول الى غيره .

ولم يمض أكثر من شهر على عودة الصاحب من الري الى اصبهان حتى امر مؤيد الدولة بالقبض على ابي الفتح ثم أمر بقتله واستوزر الصاحب وفوض اليه امور مملكته وحكمه في امواله .

. . . . .

مرّ بك ان ركن الدولة قبل وفاته عهد بالملك من بعده الى ولده عضد الدولة وجعل لولده فخر الدولة همذان واعمال الجبل ولولده مؤيد الدولة اصبهان واعمالها . وكان فخر الدولة مداجياً

لاخويه وقد كاتبه ابن عمه بختيار بن معز الدولة ودعاه الى الاتفاق معه على عضد الدولة فأجابه الى ذلك فعلم عضد الدولة به فحاربه واستولى على بلاده سنة ٣٦٩ واضافها الى اخيه مؤيد الدولة صاحب اصبهان واعمالها فهرب فخر الدولة الى جرجان والتجأ الى شمس المعالي قابوس بن وشمكير فأمنه وآواه .

وفي سنة ٣٧٠ كان عضد الدولة بهمذان فأرسل اليه مؤيد الدولة الصاحب ابن عباد رسولاً يبذل الطاعة والموافقة فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد وبالغ في اكرامه ورسم لاكابر كتابه وأصحابه تعظيمه ففعلوا ذلك حتى أنهم كانوا يغشونه مدة مقامه مواصلة ولم يركب هو الى احد منهم

وقد كتب الصاحب الى مؤيد الدولة رسالة يصف فيها ما لقيه من عطف عضد الدولة جاء فيها (فاما انعام مولانا على عبده وصنيع يده واستقباله بنفسه والدنيا تسير بسيره وخدود النجم مع سنابك خيله وتلقيه اياه بوزراء بابه وامراء اجناده وعظماء قواده متصرفين مع الاعظام ومتحفين في اللقاء والسلام ثم رتبتي به في دخولي الى الدار المعمورة بالعز وحضوري المجلس المحفوف بالملك والتبليغ بي الى رتبة

لم يقسمها حرس الله ملكه لاحد ممن غشي بابه المأمول من اطراف الأرض وأعيان الشرق والغرب واستجلاسي بحضرته التي يقف بها القمران على النواصي والهام الى ضروب من الانعام استعظم والله وصفها وان كانت الاخبار قد سارت على متون الرياح[1] بها)

و كان غرض عضد لدولة بذلك استمالة مؤيد الدولة وتأنيس الصاحب[2] . ووردت كتب مؤيد الدولة يستطيل مقام الصاحب ويذكر اضطراب اموره بعده . فخلع عضد الدولة على الصاحب الخلع الجليلة وحمله على فرس بمركب ذهب ونصب له دستاً كاملاً في خركاه يتصل بمضاربه واجلسه فيه واقطعه ضياعاً جليلة من نواحي فارس وحمل الى مؤيد الدولة في صحبته الطافاً كثيرة وضم اليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عدداً ليكونوا برسم خدمة مؤيد الدولة .

قال ابو حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين[3] : (لما

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص١٦٢ (مخطوط)

(٢) ذيل تجارب الامم ص ١٠

(٣) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٨٢

رجع الصاحب من همذان بعد ان فارق حضرة عضد الدولة استقبله الناس من الري وما يليها واجتمعوا بساوة وقد كان اعدَّ لكل واحد منهم كلاما يلقاه به عند رؤيته فاول من دنا منه القاضي ابو الحسن الهمذاني من قرية يقال لها اسداباذ فقال له ايها القاضي ! ما فارقتك شوقا اليك ، ولا فارقتني وجداً عليك ، ولقد مرت لي بعدك مجالس تقتضيك ، وتحظيك وترضيك ، ولو شهدتني بين اهلها وقد علوتهم بتبياني ولساني ، وجدلي وبرهاني ، لا نشدت قول حسان بن ثابت في ابن عباس وهو :

اذا ما ابن عباس بدا لك وجهه رأيت له في كل مجمعة فضلا
اذا قال لم يترك مقالا لقائل بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى مافي النفوس ولم يدع لذي اربة في القول جداولا هزلا
سموت الى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا دنيا ولا وغلا

ولذكرت ايضا ايها القاضي قول الآخر وانشدته فانه قال فيمن وقف بموقفي ، وقرف مقرفي ، وتصرف تصرفي ، وانصرف منصرفي ، واغترف مغترفي :

اذا قال لم يترك مقالا ولم يقف لعي ولم يثن اللسان على هجر

يصرف بالقول اللسان اذا انتحى وينظر في اعطافه نظر الصقر

ولقد اودعت صدر عضد الدولة ما يطيل الثفاثه اليّ ، و يكثر حسرته عليّ ، ولقد رأى مني ما لم ير قبله مثله ، ولا يرى بعده شكله ، والحمد لله (الذي) اوفدني عليه على ما يسر الولي ، واصدرني عنه على ما يسوء العدو ، ايها القاضي ! كيف الحال والنفس ، و كيف المجلس والدرس ، و كيف العرض والحرس ، و كيف الدس والعس ، و كيف الفرس والمرس . وكاد لا يخرج من هذا الهذيان لتهيجه واحتدامه وشدة خباله وغلوائه والهمذاني مثل الفأرة بين يدي السنور وقد تضاءل وقمؤ لا يصعد له نفس الا بنزع تذللا وتقللا هذا على كبره في نفسه .

ثم نظر الى الزعفراني رئيس اصحاب الرأي فقال : ايها الشيخ ! سرني بقاؤك ، وساءني عناؤك ، ولقد بلغني عداؤك ، وما خيله اليك خيلاؤك ، وارجو الا اعيش حتى يرد عليك غلواؤك ، ما كان عندي انك تقدم على ما اقدمت عليه ، وتنتهي في عدوانك لاهل العدل والتوحيد الى ما انتهيت اليه ، ولي معك ان شاء الله نهار له ليل ، وليل يتبعه ليل وثبور يتصل به ويل ، وقطر يدفع ومعة سيل ، « وسيعلم الكفار لمن عقبى

الدار » فقال له الزعفراني حسبنا الله ونعم الوكيل

ثم ابصر ابا طاهر الحنفي فقال : ايها الشيخ ! ما ادري اشكوك ام اشكو اليك أم شكواي منك ، فانك لم تكاتبني بحرف ، كأنا لم نتلاحظ بطرف ، ولم نتحافظ على الف ، ولم نتلاق على ظرف . واما شكواي اليك فاني ذممت الناس بعدك ، وذكرت لهم عهدك ، وعرضت بينهم ودك ، وقدحت عليهم زندك ، ونشرت عليهم غرائب ما عندك ، فاشتاقوا اليك بتشويقي ، واستصفوك بترويقي ، واثنوا عليك بتنميقي وتزويقي ، وهكذا عمل الاحباب ، اذا نأت بهم الركاب ، والتوت دونهم الاعناق ، واضطرمت في صدورهم نار الاشتياق ، فالحمد لله الذي اعاد الشعب ملتئماً ، والشمل منتظماً ، والقلوب وادعة ، والاهواء جامعة ، حمداً يتصل بالمزيد ، على عادة السادة مع العبيد ، عند كل قريب و بعيد ، سقى الله ربعاً انت اشدته بنزاهتك ، وطبعاً انت اطبته ببراعتك ، ومغرساً انت ينعته بنباهتك .

وقال للعيسا باذي : ايها القاضي ! ايسرك ان اشتاقك وتسلو عني ، وان اسأل عنك وتتسلى مني ، وان اكاتبك فتتغافل ، واطالبك بالجواب فتتكاسل ، وهذا مالا احتمله من صاحب

خراسان ، ولا يطمع في مثله مني ملك بني ساسان ، متى كنت منديلاً ليد ، ومتى نزلت عن هذا الحد لاحد ، ان انكفأت عليّ بالعذر انكفاء ، والا اندرأت عليك بالعذل اندراء ، ثم لا يكون لك فرار بحال ، ولا يبقى لك بمكاني استكبار الا على وبال وخبال .

ثم طلع ابو طالب العلوي فقال (له) : ايها الشريف ! جعلت حسناتك عندي سيئات ، ثم اضفت اليها هنات ، ولم تفكر في ماض ولا آت ، اضمت العهد ، واخلفت الوعد ، وحققت النحس وابطلت السعد ، وحلت سراباً للحيران ، بعد ما كنت شراباً للحران ، وظننت انك قد شبعت مني ، واعتضت عني ، هيهات وانى بمثلي ، او من يعثرفي ذيلي ، او له نهار او ليل كليلي ،

وهل عائض مني وان جل عائض

انا واحد هذا العالم ، وانت بما تسمع عالم ، لا اله الا الله سبحان الله ايها الشريف اين الحق الذي وكدناه ايام كادت الشمس تزول ، والزمان علينا يصول ، وانا اقول وانت تقول والحال بيننا يحول ، سقى الله ليلة تشييعك وتوديعك ، وانت

متنكر تنكراً يسوء الموالي ، وانا متفكر تفكراً يسوء العدو ونحن متوجهون الى ورامين ، خوفاً من ذلك الجاهل المهين .

(يعني بالجاهل المهين ابا الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد) .

ثم نظر الى ابي محمد كاتب الشروط فقال: ايهاالشيخ! الحمد لله الذي كفاناشرك ، ووقانا عرك وضرك ، وانا فيحك وحرك ، ديبت الضر الينا ، ومشيت الجمر علينا ، ونحن نحيس لك الحبس ، ونصفك باللبابة والكيس ونقول ليس مثله ليس ، وانت في خلال ذلك تقابلنا بالويح والويس ، لولا انك قرحان ، لسقط بك العشاء على سرحان .

وقال لابن ابي خراسان الفقيه الشافعي ايها الشيخ ! الغيت ذكرنا عن لسانك ، واستمررت على الخلوة بانسانك ، جارياً على نسيانك ، مشتهرا بفتيانك وافتنانك ، غير عاطف على اخدانك واخوانك ، لولا انني ارعى قديماً قد اضعته ، واعطيك من رعايتي ما قد منعته ، لكان لي ولك حديث ، اما طيب واما خبيث ، خلفتك محتسباً ، فالفيتك مكتسباً ، وتركتك آمراً بالمعروف فلحقتك راكباً للمنكر ، قد تفيل الرأي وتخيب الظن وتكذب الآمل وقد قال الاول:

الارب من تغتشه لك ناصح وموتمن بالغيب وهو ظنين

ثم نظر الى الشادباشي فقال يا ابا علي ! كيف انت، وكيف كنت ، فقال يا مولانا

لا كنتُ إن كنت ادري كيف كنت ولا

لا كنتُ ان كنتُ ادري كيف لم اكن

فقال اعرب يا ساقط يا هابط ، يا من تذهب الى الحائط بالغائط ، ليس هذا من تحت يدك ، ولا هو مما نشأ من عندك ، هذا لمحمد بن عبد الله بن طاهر واوله :

كتبت تسأل عني كيف كنت وما

لاقيت بعدك من هم ومن حزن

لا كنتُ ان كنت ادري كيف كنت ولا

لا كنت ان كنت ادري كيف لم اكن

وكان ينشدوهو يلوي رقبته وتجحظ حدقته وينزي اطراف منكبيه ويتشابل ويتمايل كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال يا ابا علي لا تعول على . . . . . .

فانك ان عولت على ذلك شانك وخانك وفضح خانك ومانك ،

ثم نظر الى غلام قد بقل وجهه . . . . . .

فاستوى وتقلقل وقال : ا.ن مني يا بني ، كيف كنت ولم حملت على نفسك هذا العناء ، وجهك هذا الحسن لا يتبذل للشحوب ، ولا يعرض للفحات الشمس بين الطلوع الى الغروب ، انت تحب ان تكون بدلة ، بين حجلة وكلة . . . . . هذا آخر حديث الاستقبال) .

***

علمت مما تقدم ان فخر الدولة لما غلب على امره التجأ الى قابوس بن وشمكير في جرجان فطلبه عضد الدولة من قابوس فابى ان يسلمه فجهز اليه عضد الدولة اخاه مؤيد الدولة فسار الى جرجان في منتصف سنة احدى وسبعين وثلاثماية فانهزم قابوس وفخر الدولة واستولى مؤيد الدولة على طبرستان وجرجان واستقر بجرجان وجعلها داره .

وحصل الصاحب في هذه الوقعة على الفيل الذي كان في عسكر العدو فامر من بحضرته من الشعراء ان يصفوه على وزن قصيدة عمرو بن معد يكرب :

اصددت للحدثان سا بغة وعدّاء علندى

فوصفه عبد الصمد بن بابك وابو الحسن الجوهري وابو محمد

الخازن وغيرهم وتجد مختارات من قصائدهم في الجزء الثالث من يتيمة الدهر للثعالبي ص ٦٨ وهي فريدة في بابها في الشعر العربي .

وللصاحب ثلاث رسائل كتبها مبشراً بهذا الفتح العظيم تجدها في المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد المخطوط ص ٣ و ٢١ و ٢٢ .

وفي شوال سنة ٣٧٢ توفي عضد الدولة فسمت نفس أخيه مؤيد الدولة للاستيلاء على الممالك والقيام مقامه فيها ولكنه عوجل فعرضت له علة الخوانيق واشتدت به سنة ٣٧٣ وهو في جرجان فقال له الصاحب : لو عهد امير الامراء عهداً الى من يراه يسكن اليه الجند الى ان يتفضل الله تعالى بعافيته وقيامه الى تدبير مملكته لكان ذلك من الاستظهار الذي لا ضرر فيه . فقال له : انا في شغل عن هذا وما للملك قدر مع انتهاء الانسان الى مثل ما انا فيه فافعلوا ما بدا لكم ثم اشفى . فقال له الصاحب : تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه وتبرأ من هذه الاموال التي لست على ثقة من طيبها وحصولها من حلها واعتقد متى اقامك الله وعافاك صرفها في وجوهها ورد كل

ظلامة تعرفها وتقدر على ردها ففعل ذلك وتلطف به وقضى نحبه في شعبان وهو ابن ثلاث وار بعين سنة ·

عند فخر الدولة

لما توفي مؤيد الدولة بجرجان ولم يعهد بالملك الى احد من بعده تشاور اكابر دولته فيمن يقوم مقامه فاشار الصاحب باعادة فخر الدولة الى مملكته اذ هو كبير البيت ومالك تلك البلاد قبل مؤيد الدولة ولما فيه من آيات الامارة والملك فكتب اليه واستدعاه وهو بنيسابور على حالة مختلة واضاقة شديدة فسار فخر الدولة الى جرجان ودخلها في شهر رمضان سنة ٣٧٣ فتلقاه الصاحب فرحب به فخر الدولة وبالغ في اكرامه وتناهى في اعظامه ·

واراد الصاحب اختبار فخر الدولة هل في نفسه عليه شيء مما كان في ايام مؤيد الدولة الذي اوجب هرب فخر الدولة فقال له : « قد بلغك الله يا مولاي و بلغني فيك ما املته لنفسك

واملته لك ومن حقوق خدمتي عليك اجابتي الى ما اوثره من ملازمة داري واعتزال الجندية والتوفر على امر المعاد » فقال له فخر الدولة : « لا تقل ايها الصاحب هذا فانني ما اريد املك الا لك ولا يجوز ان يستقيم أمري الا بك واذا كرهت ملابسة الامور كرهت ذاك بكراهيتك وانصرفت »[1] فقبل الارض شكراً وقال الأمر امرك وتلا ذلك انه خلع عليه خلع الوزارة واكرمه بما لم يكرم بمثله وزير وصدر عن رأيه في جليل الامور وصغيرها . وكان اذا قال فخر الدولة قولا وقال الصاحب قولا امتثل قول الصاحب وترك قول فخر الدولة . وقال الصاحب : ما استأذن لي على فخر الدولة وهو في مجلس الانس الا انتقل الى مجلس الحشمة فيأذن لي فيه وما اذكر انه تبذل بين يديّ ومازحني قط الا مرة واحدة فانه قال لي في شجون الحديث بلغني انك تقول المذهب مذهب الاعتزال و . . . فاظهرت الكراهة لانبساطه

---

(١) كذا في ذيل تجارب الامم وفي ابن الاثير . وقد ورد في يتيمة الدهر للثعالبي وفي معجم الادباء لياقوت ان فخر الدولة قال للصاحب لما استعفاه من الوزارة : « لك في هذه الدولة من ارث الوزارة كما لنا من ارث الامارة فسبيل كل واحد منا ان يحتفظ بحقه » .

وقلت بنامن الجد مالانفرغ معه للهزل ونهضت كالمغاضب فما زال يعتذر الي مراسلة حتى عاودت مجلسه ولم يعد بعدها لما يجري مجرى الهزل والمزح ·

وبعد ان استقام الامر لفخر الدولة ترك جرجان وانصرف مع الصاحب الى الري عاصمة مملكته سنة ٣٧٣ و بذل الصاحب جهده في خدمة اميره وتوسيع مملكته قال ياقوت في معجم الادباء فتح الصاحب خمسين قلعة سلمها الى فخر الدولة لم يجتمع عشر منها لابيه ولا لاخيه ·

وفي المحرم سنة ٣٧٨ اهدى الصاحب الي فخر الدولة ديناراً وزنه الف مثقال و كان على احد جانبيه مكتوب :

واحمر يحكي الشمس شكلا وصورة فاوصافه مشتقة من صفاته
فان قيل دينار فقد صدق اسمه وان قيل الف كان بعض سماته
بديع فلم يطبع على الدهر مثله ولا ضربت اضرابه لسراته
فقد ابرزته دولة فلكية [1] اقام بها الاقبال صدر قناته
وصار الى شاهانشاه انتسابه على انه مستصغر لعفاته
تفاءلت ان يبقى سنين كوزنه لتستمتع الدنيا بطول حياته

(١) قال ابن الاثير قوله دولة فلكية يعني ان لقب فخر الدولة كان فلك الامة ·

تأنق فيه عبده وابن عبده وغرس اياديه وكافي كفاته وكان على الجانب الآخر سورة الاخلاص ولقب الخليفة الطائع ولقب فخر الدولة واسم جرجان لانه ضرب بها .

وحدثته نفسه بالمسير الى العراق وضمه الى مملكة فخر الدولة فقد روى عنه انه قال : « مابقي من اوطاري واغراضي الا ان املك العراق واتصدر ببغداد واستكتب ابا اسحق الصابي ويكتب عني واغير عليه » . ولا شك ان تلك الامنية تنوقلت عنه حتى صار شعراؤه يصرحون بها في مدائحهم له ليسروه قال ابو القاسم الزعفراني من قصيدة يمدح بها الصاحب :

لاذكرت العراق ماعشت الا ان اراه يؤمه في الجنود

وهكذا فقد زين الصاحب لفخر الدولة سنه ٣٧٩ الاستيلاء على العراق ورد في ذيل تجارب الامم : كان الصاحب ابن عباد على قديم الايام وحديثها يحب بغداد والرياسة فيها ويراصد اوقات الفرصة لها فلما توفي شرف الدولة سمت نفسه لهذا المراد وظن ان الغرض قد امكن فوضع على فخر الدولة من يعظم في عينيه ممالك العراق ويسهل عليه فتحها واحجم الصاحب عن مفاتحته بذلك خوفاً من خطر العاقبة الى ان قال له فخر الدولة

ما الذي عندك ايها الصاحب فيما نحن فيه فقال الامر لشاهانشاه وما يذكر من جلالة تلك المالك مشهور لاخفاء به وسعادته غالبة فاذا هم بامر خدمته فيه وبلغته اقصى مراميه فعزم حينئذ على قصد العراق وسار الى همذان واستقر العزم على أن يسير الصاحب وبدر بن حسنويه على طريق الجادة ويسير فخر الدولة وبقية العسكر على طريق الاهواز فلما سار الصاحب قيل لفخر الدولة انه من الغلط مفارقة الصاحب لك لأنك لاتأمن أن يستميله اولاد عضد الدولة فيميل اليهم فاستعاده اليه ليسير الى الاهواز فسبق اليها وملكها ولحقه فخر الدولة بعد عشرين يوماً وأساء السيرة مع جندها وضيق عليهم ولم يبذل المال فتخاذل الجند وكان الصاحب قد امسك نفسه تأثراً بما قيل عنه من اتهامه . فلما سمع بهاء الدولة بوصولهم الى الاهواز سير اليهم العساكر والتقوا هم وعساكر فخر الدولة واتفق ان دجلة الاهواز زادت ذلك الوقت زيادة عظيمة وانفتحت البثوق منها فظنها عسكر فخر الدولة مكيدة وقال بعضهم لبعض انما حملنا الصاحب لهذه البلاد طلباً لهلاكنا فانهزموا فقلق فخر الدولة من ذلك وكان قد

استبد برأيه فعـاد حينئذ الى رأي الصاحب فاشـار ببذل المال واستصلاح الجند وقال له ان الرأي في مثل هـذه الاوقات اخراج المال وترك مضايقة الجنـد فان اطلقت المال ضمنت لك حصول اضعافه بعد سنة فلم يفعل ذلك وتفرق عنه كثير من عسكر الاهواز واتسع الخرق عليه وضاقت الامور به فعـاد الى الري وعادت الاهواز الى بهاء الدولة .

وفي سنة ٣٨٤ خطب الصاحب ابنة ابي الفضل ابن الداعي لسبطه عباد بن علي بن الحسين قال ياقوت في معجم الادباء: ووقع الاملاك في داره يوم الخميس لاربع خلون من شهر ربيع الاول سنة ٣٨٤ وكان يوماً عظيماً احتفل فيه كافي الكفاة ونثر من الدنانير والدراهم شيئاً كثيراً ولذلك انفذ فخر الدولة على يدي احد حجابه الكبار الى هناك من النثار ما زاد على مائة طبق عيناً وورقاً وكانت ام العروس ديكونة بنت الحسن بن الفيروزان خالة فخر الدولة فاضاف الصاحب الناس ونصبت مائدة عظيمة في بيت طوله يزيد على خمسين ذراعاً وكانت بطول البيت ووقف ابو العباس

الفيروزان وعبد الملك بن ما كان للخدمة ووقف كافي الكفاة ايضاً ساعة ووقف جميع اكابر الكتاب والحجاب الى ان فرغ القوم من الأكل ثم اكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة واما قاضي القضاة والاشراف والعدول فانهم اطعموا على مائدة اخرى في بيت آخر .

وفي سنة ٣٨٤ توفيت والدة الصاحب قال الوزير ابو سعد منصور ابن الحسين الآبي : توفيت ام كافي الكفاة باصبهان وورد عليه الخبر فجلس للتعزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة ٣٨٤ وركب اليه سلطانه وولي نعمته فخر الدولة ابن ركن الدولة معزيا وجلس عنده طويلاً يعزيه ويسكن منه وبسط الكلام معه بالعربية وكان يفصح بها فسمعته يقول حين اراد القيام ايها الصاحب هذا جرح لا يندمل . فاما سائر الامراء والقواد مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل وفولاذ بن زماندار احد ملوك الديلم وابي العباس الفيروزان ابن خالة فخر الدولة وغيرهم من الاكابر والاماثل فانهم كانوا يحضرون حفاة حسراً وكان كل واحد منهم

---

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٣٠٤

اذا وقعت عينه على الصاحب قبل الارض ثم يوالي بين ذلك الى ان يقرب منه ويأمره بالجلوس وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد بل كان جالساً على عادته في غير ايام التعزية ·

وفاته

كان الصاحب يردد في سنة وفاته قوله

اناخ الشيب ضيفا لم ارده ولكن لا اطيق له مردا
رداء للردى فيه دليل تردى من به يوماً تردى

قال الثعالبي في يتيمة الدهر ولما كنى المنجمون عما يعرض له في سنة موته وقال :

يا مالك الارواح والاجسام وخالق النجوم والاحكام
مدبر الضياء والظلام لا المشتري ارجوه للانعام
ولا اخاف الضر من بهرام وانما النجوم كالاعلام
والعلم عند الملك العلام يا رب فاحفظني من الاسقام

ووفني حوادث الايام وهجنة الاوزار والآثام
هبني لحب المصطفى المعتام وصنوه وآله الكرام

وكتب بخطه على تحويل السنة التي دلت على انقضاء عمره :

ارى سنتي قد ضمنت بعجائب وربي يكفيني جميع النوائب
ويدفع عني ما اخاف بمنه ويؤمن ما قد خوفوا من عواقب
اذا كان من اجرى الكواكب امره معيني فما اخشى صروف الكواكب
عليك ايا رب السماء توكلي فحظي من شر الخطوب الحوارب
وكم سنة حذرتها فتزحزحت بخير واقبال وجد مصاحب
ومن اضمر اللهم سوءا لمهجتي فرد عليه الكيد اخيب خائب
فلست اريد السوء بالناس انما اريد بهم خيرا مريع الجوانب
وادفع عن اموالهم ونفوسهم بجدي وجهدي باذلا للمواهب
ومن لم يسعه ذاك مني فانني ساكفاه ان الله اغلب غالب

ولما اعتل كان امراء الديلم وكبراء الناس يروحون الى بابه ويغدون ويخدمون بالدعاء وينصرفون وبلغه عن بعض اصحابه شماتة فقال :

وكم شامت بي بعد موتي جاهلا بظلمي يسل السيف بعد وفاتي

ولو علم المسكين ماذا يناله من الظلم بعدي مات قبل مماتي.

ووجد في بعض ايام مرضته التي توفي فيها خفة فاذن للناس وحل وعقد وامر ونهى واملى كتبا تعجب الحاضرون من حسنها وفرط بلاغتها

وقال :

كلامنا من غرر وعيشنا من غرر

اني وحق خالقي على جناح السفر

وعاده فخر الدولة عدة مرات فقال لفخر الدولة اول مرة وهو على يأس من نفسه : قد خدمتك ايها الامير خدمة استفرغت قدر الوسع وسرت في دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر بها فان اجريت الامور بعدي على نظامها وقررت القواعد على احكامها نسب ذلك الجميل السابق اليك ونسيت انا في اثناء ما يثنى به عليك ودامت الاحدوثة الطيبة لك وان غيرت ذلك وعدلت عنه كنت انا المشكور على السيرة السالفة وكنت انت المذكور بالطريقة الآنفة وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك . فاظهر فخر الدولة قبول رأيه .

فلما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة

خمس وثمانين وثلاثمائة توفي الصاحب وقد قارب الستين من عمره فاغلقت مدينة الري واجتمع النـاس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته وحضر فخر الدولة اولاً وسائر القواد وقد غيروا لباسهم فلما خرج نعشه من الباب على اكتـاف حامليه للصلاة عليه قـام الناس باجمعهم اعظامـاً وصاحوا صيحة واحدة وقبلوا الارض وخرقوا ثيابهم ولطموا وجوههم و بلغوا في البـكاء والنحيب عليه جهدهم وصلى عليه ابو العباس الضبي ومشى فخر الدولة امام الجنازة وقعد للعزاء اياماً وبعد الصلاة عليه علق نعشه بالسلاسل في بيت الى ان نقل الى اصبهان فدفن في قبة هناك تعرف بباب دزية قال ابن خلـكان : وهي عامرة الى الآن واولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض .

و كانت مدة وزارة الصاحب لمؤيد الدولة واخيه فخر الدولة ثماني عشرة سنة وشهوراً ولم يـكن له من الاولاد غير بنت واحدة تزوجها من ابي الحسين علي بن الحسين الحسني الممذاني فرزق منها عباد بن علي .

اما فخر الدولة فانه لم يحفظ عهد الصاحب بعد وفاته فقد ورد في ذيل تجارب الامم ان ابا محمد خازن الـكتب كان ملازماً

دار الصاحب في مرضه على سبيل الخدمة وهو عين لفخر الدولة عليه فلما توفي الصاحب بادر باعلامه الخبر فانفذ فخر الدولة ثقاته وخواصه حتى احتاطوا على الدار والخزائن ووجدوا كيساً فيه رقاع اقوام بمائة وخمسين الف دينار مودوعة له عندهم فاستدعاهم وطالبهم بالمال فاحضروه وكان فيه ما هو بختم مؤيد الدولة ونقل جميع ما كان في الدار والخزائن الى دار فخرالدولة ثم قبض على اصحاب ابن عباد . وكان الصاحب قد احسن الى القاضي عبد الجبار المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري فلما توفي قال القاضي لا ارى الترحم عليه لانه مات عن غير توبة ظهرت منه فنسب الى قلة الوفاء .

ورثى الصاحب كثير من الشعراء كالشريف الرضي وابي القاسم الاصبهاني وابي سعيد الرستمي وابي الفياض الطبري وابي العباس العلوي الهمذاني وغيرهم ولعل مرثية الشريف الرضي احسن ما قيل فيه لانه ذكر فيها ما امتاز به الصاحب من الصفات وعرض بما فعله فخر الدولة بعد وفاة الصاحب ووصف جزع الناس يوم تشييع جنازته وهذه طائفة منها :

يا طالب المعروف حلق نجمه حط الحمول وعطل الاجمالا

واقم على يأس فقد ذهب الذي كان الانام على نـداه عيالا
من كان يقري الجهل علما ثاقبا والنقص فضلا والرجاء نوالا
ويجنّ الشجعان دون لقائه يوم الوغى ويشجع السؤالا
يا آمر الاقدار كيف اطعتها او ما وقاك جلالك الآجالا
كم حجة في الدين خضت غمارها هدر الفنيق تخمطاً رصيالا
بسنان رمحك او لسانك موسعاً طعناً يشق على العدى وجدالا
ان نكس الاسلام بعدك رأسه فلقد رزي بك موئلا ومآلا
وآها على الأقلام بعدك انهـا لم ترض بعد بنان كفك آلا
افقدن منك شجاع كل بلاغة ان قال جلىّ في المقـال وجالا
من لو يشاطعن العدى بروُوسها راثار من جرياها قـطالا
سلطان ملك كنت انت تعزه ولرب سلطان اعز رجالا
ان المشمر ذيله لك خيفة ارخى وجرر بعدك الاذيالا
طلبوا التراث فلم يروا من بعده الا علاً وفضـائلاً وجلالا
هيهات فاتهم تراث مخـاطر حفظ الثنـاء وضيع الاموالا
قد كان اعرف بالزمان وصرفه من ان يشمر او يجمع مالا
مفتاح كل ندى ورب معاشر كانوا على اموالهم اقفـالا
كان الغريبة في الانام فاصبحوا من بعد غارب نجمه امثالا

من فاعل من بعده كفعاله او قـائل من بعده ما قالا
سمع يرفع للسؤال سجوفه ويحجب الاهزاج والارمالا
يا طالباً من ذا الزمان شبيهه هيهـات كلفت الزمان محالا
ان الزمان اضن بعد وفاته من ان يعيد لمثله اشكالا
وارى الكمال جنى عليه لانه غرض النوائب من اعير كمالا
طرح الرجال لك العمائم حسرة لمـا رأوك تسير او اجلالا
قالوا وقد فجئوا بنعشك سائراً من ميّل الجبل العظيم فمالا
وتبادروا عط الجيوب وعاجلوا عض الانامل يمنة وشمـالا
ما شققوا الا كسـاك وآلموا الا انامل نلن منك سجـالا
قد كنت آمل ان اراك فاجتني فضلا اذا غيري جنى افضالا
وافيد سمعك منطقي وفضائلي وتفيدني ايامك الاقبالا
واعد منك لريب دهري جنة تثني جنود خطوبه فلالا
فطواك دهرك غير طي صيانة واعاد اعلام العلى اغفـالا

ومر ابو العباس الضبي بباب الصاحب بعد وفاته فقال :

ايها الباب لم علاك اكتئاب اين ذاك الحجاب والحجاب
اين من كان يفزع الدهر منه فهو اليوم في التراب تراب

ولما استوزر ابو العباس الضبي ولقب بالرئيس وضم اليه ابو

علي ابن حمولة ولقب بالجليل بعد موت الصاحب قال بعض بني المنجم :

والله والله لا افلحتم ابداً بعد الوزير ابن عباد بن عباس
ان جاء منكم جليل فاجلبوا اجلي اوجاء منكم رئيس فاقطعوا راسي

قال ابو القاسم بن ابي العلاء الشاعر الاصبهاني : رأيت في المنام قائلاً يقول لي : لمَ لمْ ترث الصاحب مع فضلك وشعرك ؟ فقلت : الجمتني كثرة محاسنه فلم ادر بم ابدأ منها وقد خفت ان اقصر وقد ظن بي الاستيفاء فقال : اجز ما اقوله فقلت قل فقال :

ثوى الجود والكافي معاً في حفيرة

فقلت : ليأنس كل منهما بأخيه

فقال : هما اصطحبا حيين ثم تعانقا

فقلت : ضجيعين في لحد بباب ذريه

فقال : اذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم

فقلت : اقاما الى يوم القيامة فيه